الغربة المكانية في نماذج من شعر ابن الأبارالبلنسي

Spatial alienation in Ibn Al-Abbar Al-Balansi's poetry

د- هنية جوادي1,*

[1]جامعة بسكرة(الجزائر)hania.djouadi@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/29 **تاريخ المراجعة**:2021/06/04 **تاريخ النشر**: 2021/09/30

ملخص:

يتدارسُ البحث موضوع الغربة المكانيّة، في نماذج من شعر ابن الأبّار، فقد ذاق الشاعر مرارة الغربة بعد مغادرة بلده الأندلس إلى بلاط الحفصيين، وظلّ وطنه المحتلّ جرحًا نازفًايسكن ذاكرته، ويملأ وجدانه ألما وحزنا. يلتفت إليه التفاتة مغترب، فتتسلّل أمكنته السّاحرة ومراتعه الغناء إلى شعره،وتتماهى مع ذاته المتعبة بمرارة الفقد، وعذابات الشّوق والحنين إلى الدّيار، في تشكيلٍ فنّيٍ وجدانيٍ مشبّع بكيانيةٍ مكانيةٍ،تطفح بالغربة والوفاء للوطن الأم. ومن هذا المنطلق نسعى في هذه الورقة البحثية، إلى إبراز دور الذّاكرة في التّعبير عن فيض التّماهي المكاني في هذه التجربة الشّعرية المفعمة بمشاعر الغربة والحنين، لذا حريّ بنا التّساؤل: كيف رسم الشاّعر تقاسيم مكانه المفقود؟ وما الأدوات التي توسّلها في التّعبير عن غربته المكانية؟وما دور الذّاكرة في إعادة إنتاج دلالات الحرمان والفقد في شعره؟

الكلماتالمفتاحية: الوطن، ابن الأبار، الغربة، الحنين، الذاكرة

Abstract:

The study examines the issue of alienation and the deterioration of memory in the poetry of Ibn AlAbar Al-Qada'i, who wants conditions for forcibly leaving Andalusia to the Hafsid court, and his homeland, remains a bleeding wound, inhabiting his memory, and filling his conscience with pain and sorrow. Turning to him, an expatriate gesture turns to him, his magical places and singing places creep into his hair, and identifies with him tired with bitterness of loss and deprivation, in an emotional artistic formation imbued with a spatial entity, bursting with alienation and loyalty to the motherland. We seek to approach it, and highlight the role of memory in expressing the overflow of spatial identification in this human poetic experiment. Then we should ask: How did the poet draw the dividing of his lost place? What are the tools that you use in expressing its spatial alienation?

***Keywords**: homeland ; Ibn al-Abbar ;Alienation ;Nostalgia ;memory.*

**المؤلف المراسل.*

تقديم:

شهدت الأندلس سلسلة طويلة من النّكبات والمآسي، أدّت في نهاية المطاف إلى سقوط مدنها، وانهيار سلطانها وضياع مجد المسلمين، وانطفاء شمس حضارتها التي سطعت قرونا عدّة في هذه البلاد الممتدّة، وكانت غرناطة آخر معاقل الإسلام والمسلمين التي طالها السّقوط على أيدي الصليبيين. ولعلّ أشدّ أنواع المآسي والنّكبات وقعاً في وجدان الأندلسي، النّكبة الدّينية التي عاشها، وهو يفقد مقدّساته الإسلاميّة، وأماكن العبادة، ويشهد كيف يطالها التشويه والتدنيس على أيدي الكفآر الصّليبيين.

والشّاعر ابن الأبآر (595هـ 658هـ) كغيره من أبناء الأندلس، لم يكن بمعزل عن مأساة بلاده، فقد واكب كل هذه الأحداث الدّامية، وخلّدها في أشعاره، وبخاصة في رثائه واستنجاده، فقد استطاع أن يجسّد من خلالها مواقفه الرّافضة للعدوان، ورغبته في نصرة الأندلس وأهلها، وتخليد شعورهم، والتّعبير عن آلامهم تحت وطأة العدوّ الغاشم.

وعندما انتهت مساعي الشّاعر لنصرة الأندلس وأهلها بالفشل، خرج وأسرته قسرا منها إلى المغرب الإسلامي، وتحديدا إلى بلاد الحفصيين، ليقضي بقية حياته بعيدا، غريبا عن موطنه الأوّل الذي تحوّل إلى ذكريات تطبعها المرارة، يجترعها الشاعر، وتأبى إلا أن تسكن قصائده الشعرية، التي تتجلى للقارئ تشكيلا ذاتيا، يسترجع الشّاعر من خلاله عناصر المكان والزمن والإنسان، ويستعيد أيّامه الخوالي، وقلبه يعتصر ألما وحسرة على فقدها، وكانت مدينة بلنسية- موطن الشّاعر- من الأماكن التي تعلّق بها وملكت أحاسيسه ومشاعره، فهو وإن غادرها إلى بلاد المغرب، فإنها تأبى أن تغادر ذاكرته ووجدانه، وتتحول إلى ذكرى تسري في دمائه، فتروي ظمأه، وتهوّن وحدته وغربته، وهو هناك في منفاه بعيدا عن موطنه وأهله، يتربّص به الأعداء والحسّاد.

لقد عاش الشآعر انشطارا وتمزقا حينما شدّ الرّحال إلى المنفى، وبدت الذّات مشدودة إلى موطنها الأوّل الذي تحوّل إلى مجرّد ذكرى تسكنه ويسكنها، تظلّ هذه الذّكرى تلحّ على مغالبة ذات الشّاعر، وتَعْلَق بوعيه، يستعيدها في حلّه وترحاله، وتتبدّى في تجلّيات وصور مختلفة ومتنوعة، تغذّيها عبقريّته الشّعرية، وحسه الوطني الشفيف، وهي صور متعددة تمتد على مدار تجربة الغربة التي عاشها الشاعر بعيدا عن الديار، مما يجعل الإحاطة بجميع نصوصه الشعرية المسكونة بالمكان الأصلي أمرا صعب المنال، لأنها تحتاج إلى مساحات واسعة، لا تتسع لها هذه الورقة البحثية.

وقد دفعتنا خصوصيّة العلاقة التي تربط الشّاعر بوطنه الأصلي، وحرصه الشّديد على استعادة مكانه الأوّل إلى الاقتراب من بعض قصائده، وبخاصّة تلك التي أبان فيها عن حبّه لوطنه، وبدا فيها المكان الأندلسي الأصلي للشّاعر متوهّجا، يشاغل الذات، ويلحّ على وعيها الذاكري، ويحاول أن ينكأ جراحها الدامية، ليثير في وجدان الشّاعر مواجد الفقد واللوعة، يلوذ إليه ليحتمي به ويستمسك بجذوره، وقد جرى الاقتصار في هذه الدراسة على بعض الشّواهد الشّعرية المسكونة بالمكان الأصليّ، لأن الإحاطة بها جميعها وهي كثيرة ومتنوعة ومتشعّبة الدّلالات والأبعاد، لا يتأتى في مثل هذه المساحات البحثية.

أولا: في مفهوم الغربة والاغتراب

تشترك الغربة والاغتراب في الجذر اللغوي: غَرَبَ، واستخدمت لفظة غَرَبَ ومشتقاتها .كالغريب والمغترِب . في التراث العربي، وحفلت بها معاجم اللغة العربية للدلالة على معان كثيرة، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن الغَرْبَ يعني: الذهاب والتّنحي عن النّاس والنّوى والبعد، فالغريب: هو البعيد عن وطنه والجمع غرباء... والغرباء: هم الأباعد، وغَرَبَ في سفره: تمادى واغْتَرَبَ فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه...غَرُبَ الكلام غمض وخفي والشيء كان غير مألوف...أغْرَبَ في الشيء بالغ فيه[1]...

وما يفهم من هذه المعاني وغيرها أن غربة المرء أو اغترابه قد يكون ماديا، يبرز في بعده عن وطنه الأول، وأهله، وقد يكون روحيا أو فكريا (معنويا)، يتمظهر في مفارقة السائد كالقيم والأفكار والأعراف الموجودة في مجتمعه. وأن المعاني المستفادة من لفظة غرب ومشتقاتها كالغربة والاغتراب والغريب والمغترب... تتراوح في مجملها بين الدلالة الحسية والدلالة المعنوية، وبذلك تكون كلمة "غرب" تحمل معنيين: الأول يدل على الغربة المكانية، بينما الثاني يدل على الغربة الاجتماعية"[2]

وبالرغم من ارتباط الغربة والاغتراب وتداخلهما في معاجم العربية نتيجة اشتراكهما في الجذر اللغوي الواحد، وجد من الباحثين من يفرق بين معنى اللفظين، وفي هذا الصدد، يذهب الناقد عبد الجواد الخفاجي إلى القول:" نلمس فروقا بينهما، من حيث المدلول، فكيفما كانت الغربة انتقالا أو نأيا أو نزوحا أو تخليا أو ما شابها ذلك، إلا أنه سيظل مفهوما، يشير إلى الخارج الإنساني كمعنى مجرد. أما الاغتراب، فإنه يشير إلى الداخل الإنساني كشعور مرتبط بمن يشعر به، ومترتب عن الدخول في الغربة وممارساتها، إنه حالة يعيشها الإنسان نتيجة عوامل وظروف وتراكمات نفسية كثيرة ناجمة عن الغربة[3]وهذا ما يؤكده عبد بدوي في مقاله: الغربة المكانية في الشعر العربي، حيث يذهب إلى أن: الغربة مكانية والاغتراب نفسي... فالغربة نوع من هجر المكان /الوطن إلى مكان آخر بسبب ما، يترتب عليه الحنين والشوق إلى الوطن أو التكيف مع الموقع الجديد والاغتراب يعني الشعور بالانفصال والعزلة النّفسية، يعانيها الشخص، وهو في وطنه وبين ذويه[4]

وما نستشفه مما سبق أن مفهوم الغربة في الاستعمال العربي يشكل أساسا لمفهوم الاغتراب وأصلا له. فالغربة: غربة عن المكان بالسّفر أو النّفي، أو الهجرة، لكنها قد تكون أيضا غربة في المكان، كما كانت حال أبي حيان التوحيدي في حديثه عن الغريب بين أهله، وفي أهله وفي وطنه"[5] فالإنسان قد يشعر بالاغتراب في مجتمعه، إذا ما انتابه شعور بالنبذ، وعدم الانتماء لموطنه الأصلي وأبناء مجتمعه، فيشعر بالغربة النّفسية، ولعلها أشدها أنواع الغربة وقعا في نفسه.

وتكون غربة الشاعر .والمبدع بوجه عام . حالة من التأزم والقلق الإنساني، المؤثرة في ذاته وإبداعاته، يعيشها الشاعر وتصبح باعثا قويا لإبداعاته، وهي وإن كانت صعبة المعايشة، ولا تخلو من قساوة ومرارة، فإنها من جهة أخرى تعطي نتائجها الإيجابية في إبداعاته، وتتعمق فاعليتها أكثر فأكثر إذا ما كانت تلامس هموم موطنه وآهات أهله وعشيرته، وقد تصاحب الشاعر حتى النهاية مثلما نقف عليه في أشعار ابن الأبار الأندلسي، الذي نسج تجربة شعرية تفيض بالغربة والحنين إلى موطنه الأصلي الأندلس ، وأهله الذين تركهم في قبضة الأعداء ونهبا لسلطتهم الظالمة، فحرمته الغربة لذة الراحة النفسية والاستقرار والشعور بالانتماء الحقيقي إلى بلاد الحفصيين، فراح يترجم أحاسيسه بصدق وعفوية. ترفده شاعرية فذة وتجربة حياتية ثرية وثقافة واسعة متنوعة، وهذا ما سنحاول إبرازه في العنصر الموالي

ثانيا: الغربة/ انشطار الذات وتداعي الذّاكرة:

ذاق الشاعر ابن الأبّار مرارة الحرمان عندما دفعته ظروف الحياة إلى الهجرة من وطنه الأم "بلنسية"، إلى أمكنة أخرى وفضاءات جغرافية مغايرة شعر فيها بالغربة، وانتابه نوع من القلق الوجودي والاختلاف، فكانت تجربةالإبعاد(القسري) عن الديار، والاغتراب بعيدا عنها تجربة عميقة في نفسه ووجدانه، تجسّدهاأشعاره البكائية المفعمة بمشاعر الفقد والشّوق والحنين الجارف إلى وطنه الأم، ومنزله الأوّل، الذي نشأ وترعرع في ربوعه العامرة بالحياة والجمال والألفة، لكن الشاعر غادر وطنه كسيرا مكرها إلى بلاد جديدة، سَاكَنَهُ فيها شعور الغربة والحنين والفقد إزاء الأندلس عموما ومدينته بلنسية على وجه التحديد.

ولما كان الحس المكاني حسا متجذرا في الإنسان، متأصلا في ذاته على مرّ الزمن، فما من حركة يقوم بها الإنسان إلا ولها ارتباطها بالفضاء المكاني، أو تكون منبعثة منه، و بخاصة المكان الأصلي أو الأول الذي يسكن أعماق الشاعر ولا يمل من ذكره وترديده ، إذ إن "حس المكان بالمعنى الأول، أي المكان الفعلي، حسّ أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصا إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض (الأم)، ويرتبط بهناءة الطفولة، وصباحات الصبا، ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض المكان للفقد أو الضياع، وأكثر ما يشحذ هذا الحس، هو الكتابة عن الوطن في المنفى"[6]

على هذا الأساس، احتلت بلنسية مكانا خاصا في ذاكرة الشاعر، وهيمن حضورها في قصائده، وقد بدا عاجزا تمام العجز عن نسيانها، كيف يسلوها وقد ملكت القلب والوجدانوشغلت الماضي والحاضر؟ فهي موطن الصِّبا ومرتع الشّباب ومدرسته التي نهل منها ما طاب له من المعارف والعلوم، وجنّته الفيحاء التي درج في أحضانها وعشق سحر طبيعتها وعراقة مجدها، لذا نلقاه دائم الالتفات إليها، ودائم التحسّر على ما ألمّها من دمار وخراب، كثير التّأسف على ماضيها الذّاهب دون رجعة، وعلى حاضرها الذي محا محاسنها، وآثارها الجميلة.

ولهفة الشاعر على بلنسية مسقط رأسه، جعلته دائم الإحساس بالغربة والفقد، بل إنّ القارئ لشعره المتّصل بالذّكريات والحنين إلى الدّيار، يجد أن الرّصافة أو بلنسية، تمثل المكان النواة في قصائده، وبعد سقوطها أصبحت نقطة تحوّل في حياته وفي مسيرته الشّعرية، لما لها من انعكاسات سلبية عليه. فقد نقله سقوطها في يد العدو من حالة الأمن الاستقرار إلى حاله التيه والضياع والغربة.

ولعل البيت التالي يعبر عن تحول حياته وانكسار فؤاده بعدما باعد الأعداء بينه وبين وطنه وخلانه، حيث يورد:

هَذَا فُؤادي قَدْ تَصَدَّعَ بعْدهُمْ: مَنْ يَرْأَبُ القَلْبَ الصَّديعَ ويَشْعَبُ؟[7]

لقد أصبح الشاعر، وهو مغترب، بعيدا عنها، لا يقوى على نسيانها، ولا يستطيع أن يداري مشاعر الفقد واللّهفة والحزن عليها، وهو هناك ببلاد المغرب الأدنى،وفي كنف الحفصيين،يخال نفسه كالغصن المائل عن باقي الأغصان، وقد كان في زمن مضى كالنّخلة الضّاربة بجذورها في أعماق الأرض الأندلسية، بما ناله من حظوة ومكانة لدى سلاطينها، فليس له اليوم وهو بعيد غريب في أرض غير أرضه وبين أهل ليسوا أهله إلا أن يرسل زفراته الحارة وآهاته الحزينة المفعمة بمعاني الحزن والشوق إلى وطنه الأندلسي هناك في الضفة الأخرى من البحر، ومما يورده في هذا الصدد قوله:

إلَى أوْطـــانِه حَـنَّ العَمِيدُ فَظَـــلَّ كَأَنَّــهُ غُصْـنٌ يَمِيدُ

وَمَسْقَطُ رَأْسِهِ ذِكْرى اشْتِيَاقًافَذَابَ فُؤَادُهُ وَهــوَ الحَــدِيد

وَلَوْ رَامَ السُــلُوّ أَبَتْ عَلَيْهِمَعَاهِدُ عَهْدُهَا المَاضِي حَمــِيد[8]

لا يقوى الشاعر في منفاه على نسيان وطنه، فقلبه القوي معذب بالفقد يكاد يذوب من شدة الشوق إلى مسقط الرأس ومرتع صباه، وهو وإن حاول النّسيان والسلوّ، لا يمكنه ذلك، فثمت معاهد الماضي الجميل تقف شامخة تذكره بأيام السعادة التي أضحت مجرد ذكريات عابرة تعيد الشاعر بقوة إلى الأيام الخوالي.

ويناجي ابن الأبّار بلنسية، مدينته المحتلة، التي كانت فيما مضى رمزا للحياة والنّعم، كيف لا يناجيها في غربته وهو المحبّ لترابها، لمائها وخيراتها، العاشق لزمنها الجميل، فرغم ما حلّ بها من دمار وتشويه في الواقع الفعلي، إلّا أنّها ستبقى المدينة الأثيرة لديه، يحملها في ذاكرته، يلوذ إليها كلما أخذته رياح الشّوق إلى وطنه، لأنّها وحدها التي يمكن أن يتناسى بتذكرها بعض همومه في ديار الغربة، وهي وحدها التي يمكنها أن تخفف من حدة غربته القسرية، وتهوّن عليه شعوره بالعجز والهوان والحزن وضيقه بالمنفى. لهذا ستظل مدينة بلنسية جرحه النّازف، تؤرقه، وتنكأ جراحه، وتشغل ذهنه وتفكيره، يندبها ما عاش، وتتفجر همّا مكانيا في معظم قصائده الشعرية، وحين يتطلّع الشاعر إلى مدينته الجميلة بلنسية من ضفة غربته، يخالها وكأنها محيت، وانعدمت فيها الحياة، وهي آهلة بقاطنيها،إذ يقول:

بَلَنْسِيَّةٌيَاعَذْبَةَ المَاء والجَنــَى سقيت وإن أشقيت صوب الرَّواجِس

أُحِبُّ وَأَقْلَي مِنْكِ حَالًا ومَاضِيًا بِمُوَحِشَةٍ أَلُــــوت بِعَهْدِ الأَوَانِسِ

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الدّيار أَوَاهِــلٌ وَأَندُبُها نَدْبَ الطُّلُولِ الــــدَّوَارِسِ[9]

فبَلَنْسِيَّة *في هذا الشاّهد الشّعري، إضافة إلى كونها مكانا يدل على الوطن الأندلسي المفقود، فهي حين ترتبط بالماء، رمز الحياة، وتصبح علاقة الشاعر بها أكثر قوة وألفة وحميمية، ونشدانا للتطهر من أدران الغربة المكانية، نتيجة ما يعيشه الشّاعر من ضغوطات، وما يقدمه من تنازلات في سبيل الحفاظ على حياته، ومكانته الاجتماعية في بلاط الحفصيين. وتشكل استعادة هذه المدينة الرامزة فعلا تعويضيا عن الانقطاع عن الوطن الأصلي للشاعر، يحي فكرة الوطن في قصائد ابن الأبار، ويجعلها تتصدر انشغالاته الشعرية.

ويتفاقم إحساس الشّاعر بالغربة في منفاه، حينما يستعيد وعيه لحظات الزمن الهاربة، فيتمثل الماضي والحاضر والمستقبل، حيث يبرز وقع الزمن مختلفا عما كان عليه في الوطن الأصلي، لأنه يصبح أكثر تعقيدا، وأشد وطأة يعتصر قلب الشاعر، فيضاعف من لوعته واحتراقه، يذكّره بما مضى، بالأصحاب والأتراب، حيث الألفة والأنس، وصفو الحياة في ربوع الوطن الحبيب.

ولعظيم شوقه إليها(الرّصافة)أصبح يتمنّى أن يزورها، لأنّها تذكّره برفاق الماضي الجميل، وأماكن الصّبا، وجمال شروقها وغروبها الآسرين، وتمثّل هذه الذّكريات الجميلة الزّاد الذي يعين الشّاعر على الاستمرارية والبقاء، ويهوّن عليه وحشة الشّعور بالحرمان والغربة، فالشّاعر حين يستدعي المكان الماضي، ويعيد إنتاجه في مخيلته، فهو يريد أن يقاوم من خلال استدعائه الانبتات والانقطاع عن وجوده الحقيقي أو الفعلي في وطنه الأصلي، الذي يلتبس بالذّاكرة والحلم حتى يحقق بقاءه واستمراريته.

يقول الشّاعر مسترجعا زمن الرّصافة الجميل، وأمكنتها السّاحرة، المفعمة بالمرح والألفة، ويصف كيف كانت مرتع أنس ومتعة بالنسبة للشاعر في الماضي:

يَقـــــرُّ بِعَيْنـــــي أَنْ أَزُورَ مَغَانِيًابِسَاحَتِـهَا كُنَّا نَخُـــوضُ وَنَلْعَبُ
إذ العَـــيْش غَـــضٌّ وَالشَّبِـيبَةُ لَدْنَةٌ وَسَافرُ وَجْهِ الحُسْـنِ لَيْـــسَ يُحَجّبُ
فَكُـــــلُّ صَبَاحٍ فِي الشُّرُوقِ مُفْضَضوكُـــلُّ أَصِـــيلٍ فِي الغُـرُوبِ مُذَهَّب
وَمَا أَربي إلّا الرُّصَافَة لَـــــوْ دَنَـتْ وَهَلْ لِلْهَوَى إِلَّا الرُّصَـــــافَة مَذْهَبُ[10]

يتّصل المكان الأليف في هذا المقطع الشّعري " بذكريات الإنسان وحياته مع الصّحب والأهل،إذ تصبح العلاقة بين الإنسان والمكان وفق ذلك علاقة روحية، فهو الذي يعمّق فيه الحب والانتماء وحلم الفرد والجماعة"[11]وحينما تنبتّ العلاقة بين الشّاعر والأهل والأصحاب، فإن هذا البعد يشعرها بالاغتراب والوحدة والاحساس بعدم الانتماء.

ولما يشتدّ شوق الشّاعر إلى وطنه الأم، وتؤجّج الذّاكرة مشاعر الحنين لديه، نراه يسأل القادمين عن الديار، ويتلهّف فؤاده إلى سماع أخبارها، فيجاري في سؤاله طريقة القدماء،حيث يقول:

بِعَيْـشِـكَ عَاطِـنِي أَنْبَاءَ دَارٍ بِهَا أَغْـنَى عَن القـَدَحِ المُـدَار
إِذَا قَـرُبَتْ يَهِيجُ لَهَا اشْتِيَـاقِيوَإِنْ نَزَحَتْ يُمَثِّـلُهَا ادِّكَـارِي
وَدَعْ لَوْمِي إِذَا أَبْصَرْتَ مَيْـلِي فَسُكْرُ الشَّوْقِ مِنْ سُكْرِ العُقَارِ
فُطِرْتُ عَلَى الحَنِينِ إِلَى المَغَانِي فَقَلْبِي فِي انْصِدَاعٍ وَانْفـــِطَارِ
بَدَتْ أَعْلَامُهَا فَخَفِيتُ سُقْمًا كَأَنـــّي بَعْضُ أَقْمَـارِ السُّـرَارِ
وَنَازَعَنِي اصْطِبَارِي بَرْحَ وَجْدِيوَأَنّـَى لِلْمُعَنَّى بِاصْـطِبـــــَارِ[12]

ويتذكّر الشّاعر أيّام الدّراسة، فهي لا محالة أيّام لا تنسى لدى شاعر عالم وفقيه مثله، يحترم العلم والعلماء، وقد نشأ في بيت علم وأدب، وكان أبوه عالما جليلا، أخذ الشاعر مكانه بعد وفاته، بعد أن توسم أساتذته أمارات النّبوغ والعبقريّة الفذّة في شخصيّته، ويورد الشّاعر في هذا الصدد:

كَأَنَّنَا لَمْ نَصِلْ تِلْكَ الأَصَائِلَ فِي شَحْذِ القَرَائِحِ بِالآدَابِ وَالفِطَنِ
ولَمْ نَبِتْوَذُبَالَاتِ الشُّمـُوعِ كَمَاتَوَقَّدَتْ شَفَرَاتٌ فِي فَتًى كَـدَنِ
نرَى الثُّرَيَّا كَشَنْفٍ صِيغَ مِنْ وَرَقٍ مُعَلَّقٍ مِنْ هِلَالِ الأُفْقِ فِي أُذُنِ[13]

ويعبر في مقطع آخر عن شوقه وحنينه إلى مجالس العلم ولأساتذته الذين لقنوه مختلف المعارف، على غرار شيخه أبي الربيع الكلاعي، الذي لازمه ردحا من الزمن، وداوود ابن سليمان...وغيرهما، يقول:

أَحِنُّ لِأَرْبَابِ المَعَارِفِ بِالتُّـــرْبِ وَأَرْجُو بِهِم شَفْعَ الصَّنِيعَةِ بالرَّبِ
تَلَقَوا جَنَى القُرآن غضًّا عن الذي أتَى خَاتِمًا للرُّسْل في خاَتِمِ الكُتُب
أَطُوفُ بِنَادِيـــهِم رَجَاءَ نَدَاهُمْ كَذَلِكَ انْتِظَامُ الطَّيْر فِي مَنْثَرِالحَبّ
هُمُ القَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ بِهِمْ وَحَسْبِي أَنْ يَغْشَى مَجَالِسَهُمْ قَلْبِي[14]

ويتذكّر الشّاعر سالف عهده بالرّصافة، الذي أبقى في فؤاده لوعة وحرقة، لا يمكن لها أن تخمد في ظلّ وحدته واغترابه وتكالب حسّاده، وأعدائه، لولا تأسّيه بذكريات يحملها بين حناياه، تخفّف عنه أحزانه وطأة المنفى تجسّدها حركة جداول من ماء، تفضي بحمولتها الرّقراقة العذبة إلى الغدران، فتطعمها بالماء، كما تطعم الأمّهات أولادهن في حنوّ وعطف، ولا غرو أنّ هذه الصّورة تبرز ما تكابده الذّات من قساوة بعيدا عن ألفة

بلنسية، وحميمية أجوائها، لذا فهي تلوذ إلى المكان والزمن الماضيين، لتخفف من سطوة المكان الحاضر ووطأة زمنه، الذي يجعل الشّاعر يقبع في دوائر الاغتراب.

لِلَّهِ عَهْـدٌ لِلـــرُّصَافَةِ سَالِفٌ يَصِفُ الشَّبِيبةَ وَهيفِي رَيْعَانِهَا
أَبْقـــَى بِقَلْبِي لَوْعَةً لَوْ لَمْ يَكُنْ يَسْقِـــيهِ مَاءٌ ذَابَ مِنْ نِيرَانِهَا
يَا شَوْقَ أَحْدَاقِي هَفَتْ لِحَدَائِقٍ تُفْضِي جَدَاوِلُهَا إِلَى غُدْرَانِهَا
كَالأُمَّهَاتِ أَوَتْ إِلَى أَطْفَالِهَا فَرَمَتْ عَلَيْهَا الرِّزْقَ مِنْ قَمْصَانِهَا [15]

يشي استحضار المدينة /المكان الوطن في أشعار ابن الأبار إلىأنّ العلاقة التي تربط الشّاعر بالوطن المفقودهي علاقة جدّية، تقوم على التّماهي، تبرزها مختلف الذّكريات والتّأمّلات والأحلام والأمنيات الجميلة والآهات الحزينة التي تنسجها الذّات في رحلة اغترابها عن الأندلس المكان والإنسان والزمن، حيث يصبح كل منهما مرآة للآخر، فمثلما يقبع وطنه غريبا ضائعا في أيدي الأعداء، يعيش الشّاعر في منفاه ضياعا لا يشبهه إلا ضياع وطنه.

وعندما يشعر ابن الأبّار أن هناك فاصلا يفصله عن مكانه الأصلي وجنته الأبدية، يبدأ توسلاتهومناجاته، لأنه ليس من السّهل عليه أن يتخلّى عن المكان الأصلي الذي يعني له أشياء كثيرة جدا، وليسلهفيهذاالمقامالمبكيمنوسيلةإلّاالحمامة،تشاطره البكاء والدموعوتواسيه، ويشاطرها مرارة الغربة وآلامها، أسوة بالشعراء القدامى أمثال عنترة العبسي وأبي فراس الحمداني وغيرهم[16]،فوحدها الحمامة دون سائر الكائنات الحية من يحس بمعاناة الشاعر ووحدها من يقاسمه الحزن و النواح بحرارة فهي وحدها من يشعر بما يكابده الشاعر من حزن ومرارة، لذا يقول مناجيا باكيا في حضرة هذا الطائر الرقيق ذي الصوت الشجي الباكي:

وَحَمَامَةٍ نَاحَتْ فَنُحْتُ إِزَاءَهَا فَلَوِ اسْتَمَعْتَ لَقُلْتَ: هَذَا المَأْتَمُ
أَبْكِي، وَتَبْكِي غَيْرَ أَنِّي مُعْرِبٌعَمَّا أُكِنُّ مِنَ الغَـــرَامِ وَتُعْجِمُ
وَأُرَدِّدُ الزَّفَرَاتِ أَثْنَاءَ البُـــكَا وَتَظَـــلُّ فَـــوْقَ أَرَاكِهَا تَتَرَنَّمُ
فَإِذَا أَصَاخَ لِشَـدْوِهَا وَتَأَوُّهِي واَعٍ يَقُولُ: خَلِيَّةٌ وَمُتَيَّـــــمُ [17]

يحفّز بكاء الحمامة ذاكرة الشّاعر، ويذكره صوتها الحزين بوطنه المسلوب، فيرتدّ إليه عله يمنحه بعض القوة والعزيمة، فهو الملاذ والملجأ في ظل غربة الشاعر وتبدل أحواله. ويستعير الشاعر في مقطع آخر، الرمز ذاته (طائر الحمام) ويشبه نفسه به، فهو يبكي حماما كلما هزه الشوق والحنين إلى الشرق حيث الأهل والديار،ويبكي غماما كلما لمع البرق وضاعف من غربته وحنينه، ولكن رغم حزنه وغزارة دمعه، فهو محسود على ما يسكب من دموع، فالحيا والبرق لا يدركان معاناته وآلامه في غربته بعيدا عن وطنه وأهله، إذ يقول:

أَنُوحُ حَمَامًا كُلَّمَا ذُكِرَ الشـــَّرْقُ وَأَبْكِي غَمَـامًا كُلَّمَا لَمَعَ البَرْقُ
وَيَغْبِطُنِي فِي سَكْبِ أَدْمُعِي الحَيَاوَتَحْسِدُنِي فِي نَدْبِ أَرْبعِي الوَرْقُ [18]

وقد أدّت الاستعارة في البيتين دورها في تجسيد شعرية الغربة التي يعيشها الشاعر وإبرازها في ذهن المتلقي بما تنطوي عليه من مفارقة في جعل البرق يتّسم بصفة الغبط، وهو الكريم الذي يتسبّب في نزول المطر ليحي الطبيعة ويبث فيها الحياة بعد موتها، وبذلك يلتقي ا مع الشّاعرالذي يبكي وطنه وأهله، فكلاهما(البرق والشاعر) يتقاطعان فالبرق يذرف ماء لبعث الحياة. بعث الحياة المنشودة التي يصبو إليها الشاعر، ويهرب إليها

من خلال خيالاته وأحلامه، فقد أبدع الشاعر في هذا الصدد في الجمع بين مشاعر الحزن وما استدعاه من رموز الطبيعة، وبرع في التوليف بينها وبين مشاعره وأحاسيسه المتأججة بالغربة والاغتراب.

لقد كان الشاعر يبكي حاله ووطنه وهو بعيدا وحيدا بكاء لا يعرف التوقف أو الانقطاع، فهو الغريب والمغترب الذي لا يستطيع المجاهرة بكل هذا الوفاء للوطن الأول، وهو يعيش في بلاد الحفصيين ويستظل بظلهم، بعد أن فر إلى كنفهم من قهر الأعداء لكنه ظل يذرف الدمع باستمرار، ويبكي كالحمام الذي يبلله ماء المزن، فيجود عليه دموعا من قطرات مائه، تساعده على البكاء، حينما يجف دمعه من شدة النحيب، فمن يجود على الشاعر بمثل هذا وهو في غربته؟ ومن يعيره دمعا يبكي به الوطن والأحبة. وفي هذا الصدد يورد الشاعر مشخصا حاله من خلال رمز حمامة باكية تحت زخات المطر:

لَمَّا بَكَتْ مِنْ غَيْرِ دَمْعٍ جَرَى: أَعَارَهَا أَدْمُعَهُ المُزْنُ
فَكُلّمَا اهْتَزَّ جَنَاحُ لهَا: نَظَّمَ مَا يَنْثرُهُ الغُصْنُ[19]

ولمّـا تقدّمت الأيّام بالشّاعر، وبلغ من العمر ما بلغ، اشتدت أشواقه لوطنه وأهله، وتأجّجت في قصائده عواطف وأحاسيس مفعمة بالحنين إلى الماضي، تطبعها حكمته وتجربته الفذّة التي عاشها في العدوتين (الأندلسية والمغربية)، ولا غرو أنها كانت تجربة ثرية غنية، خالط فيها الملوك والأمراء، وعاصر الأحداث الجسام، وعاش تقلّبات سياسية واجتماعية كثيرة أكسبته خبرة ومراسا، وجعلته أكثر حذرا وفطنة، وهذا ما نلمسه في النّموذج الشّعري الآتي الذي يقول فيه:

وَطِّنْ عَلَى الدَّائِبَيْن الدَّمْعِ وَالشَّـجَنِ يَا نَادِبَ الذَّاهِبَيْنِ، الأَهْلِ وَالــوَطَنِ
واسْكُنْ إِلَى الصَّبْرِ فِي إِلْمَامِها نُــوَبا أَوْدَتْ عَلَى عَقِبِ المَسْكُونِ بِالسَّكَنِ
هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الأَوْطَانِ عَنْ حَنَقٍ وَزَحْزَحُونَا عَنِ الجِيـــــرَانِ مِنْ ضَغَنِ
وَاهًا وآهًا يَمُوتُ الصَّـبْر بَيْنَـــهُمَا مَوْتَ المَــحَامِدِ بَيْنَ البُخْلِ وَالجُبْنِ[20]

إنّ الصّبر كما يذهب الشّاعر في نصحه لأهله وذويه، هو السبيل الأنجع الذي ينبغي أن يسلكه أهل الأندلس، لتجاوز محنتهم، فليس للأندلسيين ملاذا غيره، بعدما خارت قواهم وسدّت كل المنافذ أمامهم. وأحكم العدو قبضته عليهم.

وفي سياق غربته واغترابه، يفتح الشاعر نوافذ الشوق والحنين إلى أماكن أندلسية أخرى، غير بلنسية أو الرصافة. يطل من خلالها على لحظات سعادته الهاربة، وأفراحه المسلوبة في ظل الاعتداء على وطنه الأندلسي وتشويه معالمه الحضارية، وقد ظل الشاعر وفيا لهذه الربوع، شديد التّمسك بها والوفاء لترابها. يدعو لها بالسقيا والبقاء خالدة على عادة شعراء المشرق العربي

يقول الشاعر:

سَقَى اللهّ دَارَ المزْن دَار قصية: على الشّد والتّقْريب والوخْد والنّص
يسَائل عَنْ نجْد صَبَاهَا مُعاشرُ: وأسْألُ عَنْ حمْص النَّعامى وأسْتقْصي[21]

ويتمنى الشاعر أن يرفرف كالطائر، ويحلّق بعيدا فيصل إلى تلك البقاع التي ظلّت تسكن كيانه وذاكرته، ولكنه للأسف الشديد يجد نفسه عاجزا كل العجز لا يستطيع إليها سبيلا، بعد أن قص الأعداء أجنحته،

وحولوا أيامه البيض إلى سواد حالك. ورموا به في دروب الضياع، ليس له إلا ذكريات تتأجج في صدره، وتختلج في وجدانه، وهذا ما يعبر عنه بقوله:

ولو كنْتُ موْفُور الجَناَح لَطَار بي: ولَكن حَصّه البَيْن بالقصّ

فَشَتَانَ مَا بَيْنَ أيّامي السّود،أوْجُهَا: بحَسْمى وَمَا لَيلَاتي البيض في حمص[22]

لا يمكن الإلمام بكل تجليات الغربة وصوّرها الحزينة في شعر ابن الأبار لأن لمتأمل في ديوانه يجده يعجّ بصور الغربة والشوق إلى الوطن والأهل والبكاء على ماحل بهم من نكبات، فقد عاش الشاعر كثيرا من الأحزان والآلام في حياته التي امتدت على مدار ثلاث وستين سنة انتهت بمقتله المأساوي رميا بالرماح، وحرق كتبه ومؤلفاته، ولم يشفع له ولاؤه للحفصيين ولا ما كان يحوزه من علم وأدب ومكانة رفيعة.

خاتمة:

في ختام هذه الالتفاتة البحثية إلى شعر ابن الأبارالبلنسيالقضاعي الأندلسي والتي تناولت موضوع الغربة المكانية والحنين إلى الديار في نماذج من شعره المكاني، الذي قاله في المنفى بعيدا عن وطنه المحتل، خلص البحث إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

-تتعدد الشّواهد الشّعرية التي تلتحم فيها الذّات والأماكن الأندلسية المفقودة، فيتماهى كل منهما في الآخر، ويؤدي مثل هذا التواشج إلى تشعّب دلالات الغربة وتعدد أبعادها، مما يصعّب من عملية الإحاطة بها في مثل هذه المساحات البحثية، خاصة وأن الشاعر معروف بغزارة نتاجه الشعري.

-كشف التّماهي مع الوطن المفقود في النماذج الشعرية المختارة في هذه الدراسة عما تختزنه الذّاكرة من أحاسيس نابضة بالغربة والحنين إلى الأندلس والحسرة على ماحل بها من تقهقر وتراجع، وقد ظلت خيبات الوطن المحتل تقضُّ مضجعه في منفاه، وهي لا تقض إلا مضاجع الوطنيين النبلاء الأوفياء لأوطانهم، وتعبر عن عمق انتمائهم وولائهم للأمة والحضارة رغم المحن التي تنتابها. فالحظوة التي نالها الشاعر في بلاد المغرب لم تنسه بلاده الأندلس وظل يلعج بذكرها ويعبر عن حنينه إليها.

- يعبر المكان الذاكريبكثير من الصدق الفني والحرفية الشعرية، عن انشطار الذات وتألمها، ووقوعها في جحيم المعاناة والإحساس بمرارة الفقد والحرمان،حيث تشي شواهد شعرية كثيرة قالها الشّاعر في ديار الغربة،بتعلقه الشّديد بوطنه الأم الأندلس. وحنينه إلى دياره وسالف عهده.

. يكتسي التصوير البياني وكذا توظيف بعض الرموز . كرموز الطبيعة مثلا . أهمية كبيرة في نقل مشاعر الفقد والشوق إلى الأهل والوطن وقد ساعدت الثقافة الواسعة للشاعر على تجسيد معاني ودلالات الفقد واللوعة والحرمان والحنين إلى سالف العهد، حيث الألفة والسعادة والجمال... وغيرها من مظاهر الدعة التي كان يعيشها الشاعر في وطنه قبل انقلاب حياته إلى سواد لاح ظلامه في نفسه وشعره.

-تمثل مدينة بلنسيةفضاء دلاليا عامرا بمشاعر الفقد والغربة والتماهي المكاني في التجربة الشعرية لابن الأبار، فقد غادرها الشاعر مكرها، وظل يتحسّر على ماحلّ بها من دمار وخراب وتمزق، أذهب سحرها وجمالها، وكل معالمها وآثارها الزاهية، التي بقيت حية عالقة في ذاكرته ووجدانه، تحفّزُ ذاكرته الشّعرية المثقلة بالحزن والأسى، فتتداعى في ذهنه صورها الدامية التي آلت إليها.

- ظلّ ابن الأبّار وفيّا مشدودا إلى موطنه وأهله، يبكيهما بكثير من الحزن والمرارة، ولم ينسه ما كان يكابده من مشقات في بلاط الحفصيين، كتربص الأعداء والحساد به، مأساة بلاده المغتصبة وظل قلبه ينزف وفاء لوطنه، في غربته، حتى آخر رمق من حياته.

هوامش وإحالات المقال

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة غرب، ج1، 2003دار صادر، ص638 وما بعدها

[2] يحي الجبوري الفلاحي، الغربة والحنين في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان أنموذجا) دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2007، ص17

[3] عبد الجواب الخفاجي، عن الفرق بين الغربة والاغتراب على الرابط الإلكتروني:Kenana online.com/users/khf تاريخ الزيار: 20.3.2021، 8سا

[4] عبده بدوي، الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، مج،15، ع1، 1983، ص14 (عدد الصفحات من 7إلى 28)

[5] شاكر عبد الحميد، الغربة المفهوم وتجلياته في الأدب، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، يناير2012، ص26

[6]اعتدال عثمان، إضاءة النص، (قراءة في الشعر العربي الحديث) الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998، ص8

[7] ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، قراءة وتحقيق عبد السلام الهراس، التونسية للنشر، ط1، 1985، ص62

[8] المصدر نفسه، ص177

*بلنسية: مدينة (Valencia)تقع شرق اسبانيا على البحر المتوسط

[9] المصدر نفسه، ص314

[10] المصدر نفسه، ص69

[11] أحمد جمال المرازيق، جماليات النقد الثقافي، نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عنان الأردن، ط1، 2009، ص13

[12] المصدر نفسه، ص212

[13] المصدر نفسه/ ص343

[14] المصدر نفسه، ص90

[15] المصدر نفسه، ص327

[16] موسى ربايعية، جماليات الأسلوب والتلقي، دراسة تطبيقية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2000، ص64

[17] المصدر السابق، ص297

[18] المصدر نفسه، ص392

[19] المصدر نفسه، ص319

[20] المصدر نفسه، ص320

[21] المصدر نفسه، ص329

[22] المصدر نفسه، ص نفسها

قائمة المراجع

1. ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، قراءة وتحقيق عبد السلام الهراس، التونسية للنشر، تونس، ط1، 1985
2. ابن منظور، لسان العرب، ج1، دار صادر، بيروت، 2003
3. أحمد جمال المرازيق، جماليات النقد الثقافي، نحو رؤية للأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن (ط.1) 2009
4. اعتدال عثمان، إضاءة النص (قراءة في الشعر العربي الحديث) الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ط) 1998
5. شاكر عبد الحميد، الغربة المفهوم وتجلياته في الأدب، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب، الكويت، يناير2012

6. موسى ربايعية، جماليات الأسلوب والتلقي (دراسة تطبيقية) مؤسسة حمادة للنشر للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن (ط.1)،2000.
7. عبده بدوي، الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، مج15، ع1، (عدد الصفحات: من 7إلى 28)
8. يحي الجبوري الفلاحي، الغربة والحنين في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان نموذجا) دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، (د.ط) ، 2007
9. عبد الجواب الخفاجي، عن الفرق بين الغربة والاغتراب على الر ابط الإلكتروني:Kenana online.com/users/khf تاريخ الزيار: 3.20 2021، 8سا